سهى البرغوثي إعلامية، ومناضلة، وعاملة إداريّة في "فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية" (رام الله)، وزوجة أحمد قطامش (المناضل الذي قاد حركة سياسية مسلّحة وعاش سبعة عشر عاماً متخفياً ـــ بمساعدة سهى ـــ عن عيون الإسرائيليين). تتوزّع هذه المذكّرات في قسمين: "المسكوبية،" و"ذاكرة صفد." ينحصر القسم الأوّل في تجربة الاعتقال. أما القسم الثاني (الذي لم تنته البرغوثي من كتابته حتى اللحظة) فيتعرّض لتجربة "الاختفاء،" وصولاً إلى إصابتها بقنبلة حارقة في الصدر.

هنا تنشر المجلة القسم الأول من مذكّرات البرغوثي، مع الإشارة إلى أنّ كلّ ما ورد فيها من أحداث "حقيقي ومطبوع في الذاكرة كأنّه حدث بالأمس" كما أشارت المؤلّفة في رسالةٍ خاصةٍ.

المسكوبيّة: مذكّرات سجينة من فلسطين

سهى البرغوثي

بـــــدأ الظلامُ بالهجوم، شاركه صمتٌ ثقيلٌ لا تَقْطعه سوى بعض الجمل يتداولها الجنودُ المحيطون بي في سيارة الجيب العسكرية. استخدمتُ معرفتي البسيطة باللغة العبرية، علّني أستدلّ على الوجهة التي نتجه إليها... دون جدوى. فجأةً اخترق صوتُ اللاسلكي جدارَ الصمت. ركّزتُ سمعي كي ألتقط أية همسة خارج حركة الدورية العسكرية الرتيبة على الطريق المؤدّي من جسر الملك حسين عند أريحا إلى المجهول. لم أسمع إلاّ عبارة «هكول بسيدر»: كلّ شيء على ما يرام. انتظرتُ تتمة العبارة ولم أتلقّ سوى ضحكةِ أحد الجنود، تبعتْها تمتماتٌ خافتةٌ من الأربعة الآخرين الذين دقّقتُ في ملامحهم قبل أن يضعوا العصبةَ على عينيّ.

اثنان تدلّ ملامحُهما على أنهما قادمان من الغرب؛ فهما يتحدّثان الإنجليزية بلكنة شبيهة بسكّان نيويورك. أما الثالث فهو يهوديٌّ يمنيٌّ على ما يبدو، لسمرة بشرته وقصر قامته. في حين أنّ لهجة الرابع العربية تدلّ على أنّه درزي، أو من بدو النقب الذين يَخْدمون في الجيش. والخامس من المؤكد أنّه روسي: فهو ضخم الجثة، أشقر، يكاد لا يتكلم العبرية، ويدندن بكلماتٍ مغنّاةٍ على لحنٍ روسيّ لا يخفى على السامع.

فَكَّ أحدهم القيدَ عن رسغيّ ثم أعاد تقييدَهما بعد أن نَقلتُ يديّ من وراء ظهري إلى الأمام لأخفِّف من ضغط الكلبشات بسبب الوجع والخدر اللذين أصابا كتفي وأصابع الكفَّيْن. تَواصَل شعورُ الخدر في الكفين؛ فالكلبشات تحيط معصميّ منذ ساعات الظهيرة عندما أوقفوني على نافذة فحص هويات المسافرين وتصاريحهم. في هذا الموقع تحديدًا ترى الأعينَ مسمَّرة على أصابع المجنَّدة التي تُدخل البيانات على جهاز الكمبيوتر. نظرات تَرْغب في أن تثقب الصندوق المعدني لترى النتيجة المطبوعة على الشاشة: أيُسمح للمسافر بالمرور، أَمْ يُمْنع من السفر، أم يُعْتقل كما حدث معي؟

نظراتُ التعاطف لفّتني بحنوّ صامت، عندما تقدّم نحوي جنديان وشرطيةٌ بعد اتصال مضطرب من مجنَّدة الفحص الأمني.

تمّ اقتيادي إلى حجرة صغيرة جدًا، أَشْبَه بقفص حجريّ، حُشرتُ فيها حشرًا مع حقيبة سفري. ابتسمتُ هازئة حين راحت الشرطيةُ تفتِّش ملابسي قطعةً قطعةً وكأنّها تفكّك عبوةً ناسفة. رنّت آلةُ الكشف عن المعادن بعد اصطدامها بالسيخ المعدني أسفلَ حمَّالةِ الصدر. عاودتِ الشرطيةُ الكرَّةَ بالآلة تارةً، وبيدها مرةً تلو الأخرى. قلتُ لها: «آسفة.. لو كنتُ أعلم أنّها ستُتعبك في التفتيش لجَهْلِكِ بهذا النوع من حمّالات الصدر، لابتعتُ نوعًا آخر.» قالت بغضب: «شيكت،» أيْ أسكتي.

تصاعد ضغطُ الدم على رأسي، وشعرتُ بحرقة في حلقي وبرغبةٍ شديدةٍ في البكاء عندما تذكّرتُ أمي التي ودّعتني صباحًا وحمّلتني العديدَ من السلامات لشقيقاتي في الأردن ـ خاصةً «سلافة» التي لا تستطيع العودةَ بسبب الإبعاد. كيف ستكون وطأةُ اعتقالي عليها، خصوصًا أنّني الابنة الوحيدة التي تعيش معها في الوطن؟ كيف أُرسل لها خبرَ اعتقالي لـ «تنظّف» البيت قبل وصولهم لتفتيشه؟

مضت ساعتان. ربما ثلاث. توقّفت السيارة المصفّحة. تناهى إلى سمعي لغوٌ بالعبرية. زال بعضُ ضيقي حين أزاحوا العصبة عن عينيّ. وعلى الفور اصطدم بصري بساحة واسعة وعدد كبير من سيارات الشرطة. تعرّفتُ فورًا على المبنى الذي يثير الخوفَ في نفوس الفلسطينيين: إنّه المسكوبيّة، مركزُ التحقيق الأسوأ في الذاكرة الوطنية الفلسطينية المعاصرة.

لمحتُ نظرةَ استغراب من الشرطة عند المدخل. ربما لم يتوقّعوا أن يروا فتاةً أنيقةً في يديها كلبشات. تقدّمتْ شرطيةٌ ضخمةٌ جدًا – علمتُ فيما بعد أنّ اسمَها يافا ـ وفكّت الكلبشات عن يدي، ثم قامت بتفتيشي بدقة. أخذتْ مني علبةَ السجائر، والساعةَ، والخاتمَ، ومشبكَ شعري الذي لم يَسْلم من عبث أصابعها. لم أعرف آنذاك عمَّ تبحث، إذ لا يُمْكن أن أخبِّئ قطعةَ سلاح في شعري! ولكنّي عرفتُ فيما بعد عن «الكبسولات،» وهي رسائل مكتوبة بخطٍ منمنم، ثم تُلَفّ بالنايلون، فتصبح قابلةً للبلع. كانت الكبسولات وسيلةً معروفةً لنقل الرسائل من الوطن وإليه، ومن السجون إلى السجون أثناء زيارات المعتقلين، حتى باتت تعبيرًا شعبيًا دارجًا في أوساط الحركة الوطنية، وكثيرون يتندّرون حول عدد الكبسولات التي بلعوها في حياتهم.

دقّات الصداع تتوالى. طلبتُ من يافا حبّاتٍ مسكّنة. رفضتْ لأنّ ذلك يحتاج إلى إذن من المخابرات.

أثناء نقلي إلى داخل السجن، رأيتُ شابًا فلسطينيَّ الملامح يَصْرخ، ووجهُه مضرَّجُ بالدماء: «سيعذِّبونك. لا تهتمي.. واصمدي!» فتلقّى لكمةً في صدره من رجل لا يرتدي ملابسَ الشرطة (افترضتُ أنّه من المخابرات). لكنّ شيئًا ما ـ ربما الحذاء النظيف الذي ينتعله ومظهره العام ـ جعلني أُحسّ أنّها تمثيليةٌ، المقصودُ منها إرهابي من أول الطريق.

إذن، بدأتْ معركةُ الخداع قبل معركة العنف الجسدي، وهذا يتطلّب أن أشحذ ذاكرتي لاسترجاع كلِّ ما سمعتُه عن وسائل الخداع وأساليب التحقيق. تسارعتْ في رأسي تداعياتٌ شتى. هذا منعطف جديد، وعليَّ أن أستعدّ وأن أفوز. هكذا فكرتُ وأنا أتحرّك في قفص صغير. زنزانةٌ كئيبةُ المنظر واللون والرائحة، نقلتني إليها الشرطيةُ بعد أن اجتزنا ممرًا طويلاً، وأنا أسمع فتحَ أقفالٍ وإغلاقَ أبواب. عادت يافا، يَسْبقها رنينُ المفاتيح الغليظة وصوتُ كعبها يدقّ الأرض. نقلتني إلى غرفة واسعة جدًا، سقفُها قوسيٌّ مرتفع، طرازٌ قديمٌ لمبنًى كانت تَمْلكه الجاليةُ الروسية التي كان لها حضورٌ محدودٌ في القدس بعد أن سنَّ العثمانيون قانونَ الطوائف الذي يجيز للأرثوذكس في العالم مساعدةَ طائفتهم في فلسطين. كان في الغرفة ستةُ أسرّة معدنية مثبتة في الأرض، منها سريرٌ واحدٌ فقط مغطّى بفرشة جلدية رقيقة وعليها غطاء خشن كريهُ الرائحة. كان الوقت نهايةَ نيسان، ومع ذلك فالبرد شديد.

لا أَعْرف كم مضى من الوقت وأنا أسكّت الأسئلةَ والأفكارَ قبل أن أغفو. أَفقتُ متعبةً، وقررتُ إعلان الإضراب عن الطعام حتى أقابل محاميةً أو أُبلغَ والدتي خبرَ اعتقالي. استمرّ إضرابي خمسةَ أيام، سرّبتُ خلالها خبرَ اعتقالي لمحاميةٍ إحدى المعتقلات، وكنتُ قد لقيتُها مصادفةً في قاعة الطعام. أرسلت المحاميةُ ليئا تسيمل سكرتيرتَها للقاء أمي، التي ألَمّت بها الوساوسُ وأرهقها البحثُ عنّي بعد أن انقطعتْ أخباري.

لم يكد الصباحُ يتنفس حتى استُدعيتُ إلى جولة التحقيق الأولى. أربعةُ محققين يوجِّهون إليَّ أسئلةً تقليديةً مكثَّفة، تصاحبها لعبةُ الخير والشر. تهديدٌ من أحدهم، وليونةٌ وادّعاءٌ بالتفهم من آخر. كانت جولةً طويلةً نسبيًا، تخلَّلها إيقافُ التحقيق لبعض الوقت وزجّي في زنزانةٍ مجاورة. انتهت الجولةُ بوضع كيس على رأسي وإيقافي مكلبشةً على عامودٍ مثبّتٍ في ساحة صغيرة. كان هدفَ الجولة على ما يبدو التعرفُ على مَواطنِ ضعفي.

تعدّدت الوجوه التي مرّت عليّ: نزيلات جديدات يأتين ويَخْرج معظمُهنّ، أو يُنقلن إلى سجن الرملة بانتظار المحاكمة بعد تقديم الاعترافات. كنتُ وحيدةً في تلك الليلة، أَذْرع الغرفةَ ذهابًا وإيابًا لكسر الوقت.

كان على الشرطية المناوبة حين ينتهي وقتُ عملها أن تمرّ أمام باب الغرفة التي أُحتَجَزُ فيها لكي تتّجه إلى السرير الذي تنام عليه، والذي يقع في ردهة صغيرة خارج غرفة السجينات. هنا تعرّفتُ على روزيت. نحيلة، قصيرة القامة، شعرها أسود مموّج، وملامحها عربية ومريحة. فاجأتني بسؤال:

– أنت مسيحية؟

– لا. لماذا؟

لم تجب. تابعْنا الحوارَ الحذر، لأَعْلم أنّها يهودية مغربية. حدثتني عن طيب الحياة هناك، وكَمْ تَحْلم بالعودة إلى المغرب. لكنّها صمتتْ عندما قرأتْ في عينيّ تساؤلاً: «ولماذا لا تعودين، بل لماذا جئتِ إلى هنا أساسًا؟» خرجتْ عن صمتها لتقول:

ـ الساعة الآن الواحدة، واليوم الثلاثاء. الطقس سيكون غدًا معتدلاً، والحرارة أعلى من المعدّل في شهر أيار. نحن في الرابع من أيار. تصبحين على خير!

إذنْ، أنا هنا منذ ستة أيام، والساعة الواحدة بعد منتصف الليل، والطقس ربيعي جميل. مرّت في ذاكرتي سهولٌ خضراء، وشجرٌ مكسوٌّ بالورق الأخضر اليانع، وخاصةً أشجارُ التفاح والجوز في حديقة منزلنا، وأحواضُ الورد التي كانت أمي تَحْرص على رعايتها. لماذا أبلغتني روزيت بهذه المعلومات، فنقلتني إلى الحياة العادية، إلى الزمن العادي، إلى رائحة البيت الذي لا تضاهيه روائحُ العطور. أجبتُ بصعوبة:

ـ تلاقين الخير.

هل قلتُ «تلاقين الخير» لشرطيةٍ تَسْجنني؟ ماذا يحصل هنا؟!

غفوت. أفقت على صوت هادئ، بعكس صوتِ شرطيةٍ تدعى أڤيڤا. كان صراخٌ، يصاحبه هزٌّ وزجرٌ وأمرٌ واستدعاءٌ للتحقيق. صوتٌ يناديني بهدوء:

ـ سهى.. سهى.. استفيقي.. حوكير (تحقيق).

ثم استطردتْ وهي تفتح باب الغرفة:

ـ اغسلي وجهَكِ على مهل.

لاحظتْ في عينيّ دهشتي من لهجتها الهادئة. وَضعت الكلبشاتِ بيدي برفق وقالت:

ـ آسفة.

من المعتاد أن نمرّ عبر سبع بوابات أو ثمانٍ، تُفتح ثم تُغلق، ونحن في طريقنا إلى غرف التحقيق. بعد اجتياز الباب الرابع شعرتُ بحاجةٍ إلى استعمال الحمّام. أردتُ أن أختبرها، فطلبتُ منها إعادتي إلى الغرفة لاستعمال الحمام.

ـ ولِمَ لا ؟.. ولكنْ أسرعي.. حتى لا نُفْقدهم صبرَهم.

بدأ التحقيق. مرّ زمنٌ أعتقد أنّه يزيد على أربع ساعات. عدتُ من جولة تحقيق عاصفة استعملوا فيها كلَّ قاموس اللغة البذيئة والتهديد بالاغتصاب أمام والدتي. رافقتْ ذلك ركلاتٌ متكررةٌ في ساقيّ وقدميّ، وصراخٌ من قِبل محقق يدعى «أبو نهاد.» عدتُ بحالةٍ جسديةٍ متداعية، وحالةٍ نفسيةٍ متماسكة لأنّني حافظتُ على صمتي. لكنّ المفاجأة التي كانت في انتظاري أنستني كلّ الآلام الجسدية؛ فقد وجدتُ كوبًا من الشاي الساخن قرب سريري. روزيت! ما أروعَكِ! عادت بعد انتهائي من شرب الشاي. أَخذتِ الكوبَ من فتحة الباب. وَضَعَتْ يدَها على فمها كأنّها تَطْلب مني أن أصمت، خوفًا من يافا لأنّها تقول لهم كلّ شيء. لم أكد أصحو من المفاجأة الأولى، واستلقي على السرير لأريح جسدي المنهك، حتى شممتُ رائحةَ بيتنا تفوح من بشكير نظيف يغطّي المخدة. إنّها روزيت مرةً ثانية، تَنْقلني دون أن تدري إلى البيت.

ـ روزيت.. هل تَعْلمين ماذا فعل غطاؤك بي؟

بنظرة حانية، قالت لي:

ـ ارتاحي الآن. أنت مُجْهدة. سنتحدث عند ورديتي القادمة بعد يومين. إلى اللقاء.

ـ **استفيقي** أوخل (طعام).

داهمني صوتُ أڤيڤا الأشبهُ ببولدوزر صدئ. أجبتُها بلؤم وبلهجة حادة:

ـ انتظري.. أريد أن أغسل وجهي.

ـ أسرعي.

ـ قلتُ لكِ انتظري.

ـ سأحرمكِ من الأكل.

ـ انصرفي.. أنت وأكلك التعس.

ـ أنت مغرورة وسأعلّمك الأدب.

ـ هل سأتعلم الأدب من فاشيّةٍ مثلك؟

قالت بلهجة ماكرة وبغطرسة عنصرية:

ـ ستعترفين، وستُحْكمين بالمؤبّد، وسأنقلكِ بنفسي إلى سجن الرملة لتقضي فيه كلَّ حياتك.

قلتُ لها بمنتهى الهدوء:

ـ سأخرج من هنا إلى البيت بعد أيام أو أسابيع معدودة فقط، لأسبِّبَ لكِ القهرَ والانزعاج.

أكثرُ ما كان يثير أڤيڤا استهزائي بها حين أقول لها إنّها تعمل في خدمتي! كانت تَفْتح لي الباب وتغلقه، وتضع لي صحنَ الطعام، وتصطحبني للتحقيق. كررتُ ذلك القول مراتٍ ومراتٍ، حتى باتت ـ على ما يبدو ـ مقتنعة به. أصبحتْ تتردّد عندما تفتح لي باب الغرفة. ولتَلافي هذا الشعور بأنّها تخدمني كانت تتعمّد دفعي إلى الداخل بقوة، لأقول لها بمكر:

ـ ولو.. ما زلتِ تعملين في خدمتي!

ضحكنا أنا وروزيت مطوّلاً وأنا أروي لها الملاسنات بيني وبين أڤيڤا، فاكتشفتُ أنّها تحاول إخفاءَ اشمئزازها منها... ومن الدور الذي تؤديه.

قطعتُ الغرفةَ مئات المرات ذهابًا وإيابًا في انتظار روزيت، محاولةً أن أوقف الدموعَ التي انهمرتْ. لقد كان اليوم عاصفًا، وجولة التحقيق مختلفةً في نوعية القهر والعنف.

فوجئتُ بوجودها في غرفة التحقيق. أَخْبرني أحدُهم بأنّهم سيقومون باغتصابي إنْ لم أعترف. وقال آخر: «أدخلي! لدينا مفاجأة لك بالداخل.» فَتَحَ باب غرفة صغيرة تتوسَّط أحدَ جدرانها مرآةٌ كبيرةٌ تخيَّلتُها شبّاكًا عاكسًا سبق أن رأيتُ مثلَه في المسلسلات الأمريكية، حيث يرى رجالُ الشرطة المتَّهَمين دون أن يراهم هؤلاء. ثم وجدتُها جالسةً على مقعد خشبي وسط الغرفة، عيناها الصغيرتان مسمَّرتان على الباب، وشفتُها السفلى ترتجف بعض الشيء من شدة التأثر. يا إلهي كم ازدادت التغضُّناتُ على صفحة وجهها الهادئ الطيّب، وكأنّ سنوات فصلتْنا لا بضعة أيام فقط!

كانت ترتدي معطفَها الأسود الذي ظهرتْ به في الصور المرافقة لأغنية فيروز «جسر العودة» وهي معتصمة ومُضْرِبة عن الطعام مع زميلاتٍ لها، ومع رفيقة دربها سميحة خليل، احتجاجًا على محاولة اغتيال رؤساء البلديات.

نظرتُ إليها شامخةً في جلستها كما كنتُ أشاهدها دائمًا عند أبواب السجون، في المسيرات والمظاهرات والاعتصامات، في الكنائس والجوامع ومقرّات الصليب الأحمر. تفحَّصتُ حذاءَها الأنيق، معطفَها، يديْها، وجهَها. مرّت عليها نظراتي الغاضبة، الحانية، المتألمة، المشتاقة. لماذا أحضرتموها، أيُّها السَّفَلة؟

نظرتُ إليها بلهفة. بذلتُ أقصى جهدي لأمنع الدمعةَ من النزول، ولأكبح الغليانَ المستعرَ في أحشائي ألمًا وغضبًا وشوقًا. لم تبادلْني القبلات التي طبعتُها على وجنتيْها وعنقها ويديْها. تماسكتْ وقالت:

ـ اسمعيني! أنتِ لم تفعلي أيّ شيء. إيّاك أن تعترفي بأشياء لم تفعليها، وإلا سأغضب عليك غضب قلبي وربي. تماسكي. قَتْلة وبتفوت، وما حدا بيموت. الله يرضى عليك، ارفعي رأسي.

اشتدت عزيمتي، وكتمتُ رغبتي الشديدة في البكاء. قبّلتُها. أُغمي عليها من شدة المرض والتأثّر. بدأتُ بالصراخ:

ـ أيها الفاشيون، قتلتموها.

وبسرعة كبيرة دخل عدد من رجال المخابرات إلى الغرفة. حَمَلوها إلى عيادة السجن، وسَمَحوا لي بالاتصال بمحاميتي لتَحْضر وتَنْقلَ والدتي إلى المستشفى. علمتُ فيما بعد من المحامية أنّ حالة والدتي كانت خطرة، وأنّها أمضت أسبوعًا في غرفة الإنعاش. كانت تلك انعطافةً في سلوكي من التحقيق، إذ تَحَوَّلَ صمتي إلى مناكفات وشتائم، وطغى الغضبُ على كلّ شعور.

لم تنبس روزيت بأية كلمة عندما أخبرتُها بما حدث مع والدتي. مدّت يدَها من بين القضبان العريضة، ووضعَتْها على رأسي، ثم قالت:

ـ سلامتها.

ثم أمسكتْ يدي بقبضتيْها، وأكملتْ:

ـ تحمّلي.. هانَتْ!

ورَوَتْ لي قصةَ فيلم شاهدتْه في التلفزيون، فأعجبها: «دكتور زيفاجو» الذي مَثَّل دَورَ البطولة فيه عمر الشريف. وحَدَّثتني كَمْ شَغَلَها التناقضُ بين شراسة الحرب وعذوبةِ الحبّ. تحدَّثْنا عن السينما والمسرح والموسيقى. أخبرتُها عن إعجابي بقصة «الهارب» لراسبوتين التي بدأتُ بقراءتها قبل اعتقالي. أَبدتْ إعجابَها بالأدب الروسي، لكنّها كانت تحب الآداب العالمية الأخرى أيضًا. حدثتني عن غرامشي، فذكرتُ لها إحدى النوادر عنه: فقد طلب منِّي أحدُهم إحضارَ كتابٍ لغرامشي من المكتبة، وكنتُ في بداية طريقي في عالم القراءة. فقُلتُ لصاحب المكتبة إنّني أريد أن أقرأ كتابًا لغرامشو. ضحك، وأجاب: «يوجد لدينا **غرام وانتقام** فقط ولا يوجد لدينا غرام شو.» وبخبثٍ قال: «سأعطيكِ كتابًا لغرامشي، لربّما يؤدي الغرض.» ضحكنا. كانت ضحكة روزيت طفولية لا تتلاءم مع زيِّ الشرطية ووظيفتها عمومًا.

انتقلنا إلى الحديث عن المرأة، فأبديتُ لها رأيي المختلف مع شعار «اتحاد نساء العالم.» ولأُثبتَ صحة رأيي سألتُها عن نقاط التقاطع مع أڤيفا مثلاً. فأجابت مازحةً أن أڤيفا ليست امرأةً بل شيطان في ثوب امرأة! واستمرت روزيت في رواية القصص والأقوال المتناثرة. لم تتركني إلى أن أحسّت بعودة الهدوء إلى نفسي. ذهبت إلى النوم، وفتحت المسجّل، فسمعتُ أغاني مغربية نقلتني خارج القضبان، لا إلى رام الله وحدها، بل إلى العالم العربي أيضًا الذي حُرمتُ من زيارته عشرَ سنوات بعد خروجي من الاعتقال، عقوبةً على صمتي في التحقيق.

غابت روزيت بضعة أيام في إجازة. ولسوء حظي، أتى موعدُ الدورة الشهرية مصحوبًا بألم ومغص شديديْن وإرهاق عامٍّ متزايد نتيجةً لجولات التحقيق المتكررة والعنيفة. قوبل إلحاحي بالحصول على حبوب مسكِّنة وفُوَطٍ صحيةٍ بالرفض الفظّ من قبل أڤيفا، وأشارت إلى أنّ ورق التواليت يكفي. في اليوم التالي حَضَر مندوبُ الصليب الأحمر لزيارتي، وذُهل من منظر الدماء على المقعد الذي جلستُ عليه أثناء اللقاء، فقام بحملة اتصالات مع إدارة الصليب الأحمر وإدارة السجن، وأثمرتْ جهودُه عن منحي بضعَ فوطٍ صحية.

كم كانت انتصاراتي الصغيرة كبيرةً! سرعةُ تأقلمي مع الظروف المعيشية الصعبة في السجن غمرتني بسعادة من نوع خاص: فأنا أنتمي إلى الفئات المتوسطة، وأعيش حياة ميسورة عمومًا. أما هنا، فأنا مقيَّدة، والمكان يكتظّ بمجرمين جنائيين، وبصنوفٍ يوميةٍ من التعذيب والقهر. تذكّرتُ والدتي، وتذكّرتُ مسيرةَ حياتها الطويلة: منذ بدأتْ بنقل السلاح للثوّار في صفد وهي في الثانية عشرة من عمرها، مرورًا بالنكبة التي قلبتْ حياتَها رأسًا على عقب، وإصرارها على مواصلة العمل الوطني

والاجتماعي. تذكّرتُ صورتَها وهي تتعارك مع الجنود لتُبقي صورةَ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر معلّقةً على الحائط في بيتنا. تذكّرتُ كيف كانت توقظنا كلَّ يوم جمعة لزيارة معتقلين لا نعرفهم وندّعي أنّهم أولادُ خالتنا، ولم يكن لهم أقارب في الوطن. تذكّرتُ مسيرتَها مع المناضلة الكبيرة سميحة خليل في بناء صرح «جمعية إنعاش الأسرة» التي أصبحتْ من أكبر المؤسسات الخيرية الاجتماعية في الوطن. تذكرتُ قوتَها في مواجهة جنود الاحتلال أكثرَ من مرة وهم يفتشون منزلنا ويعتقلون شقيقاتي.

ذكرياتٌ ومشاعرُ مختلطة ولَّدتْ لدي حزنًا شديدًا على والدتي، إذ تخيّلتُها دامعةً وهي تحاول مناجاتي كي أصمد لأخرج إليها بسرعة. حاضر يا أمي. لا تقلقي. سأغادر التحقيق إلى البيت. لن أذهب إلى سجن الرملة ما دام الموضوع مرهونًا بصمتي. اطمئني. وأرجوك أن تثقي بي فلن أخيِّب ظنَّك، ولا ظَنَّهم... ولا ظنَّ سرِّي الكبير: الرجلِ الذي غدا زوجي والذي لا يعرفون عنه أيَّ شيء. تذكّرتُه فجأةً. تذكّرتُ لحظةَ التقيتُه قبل ثلاثة أعوام أو يزيد على الرصيف. مرّ كلمح البصر وأنا عائدة من مباراة كرة سلة بلباسي الرياضي. توقفتُ عن التفكير فيه؛ فمن غير المسموح بتاتًا أن يتطرّق ذِكْرُه على لساني. وهذا ما حدث طيلة سنوات، إلى أن اعتُقِل بعد سبعة عشر عامًا.

بينما أنا غارقةٌ في أحلام اليقظة، فُتِحَ بابُ الغرفة وأَدخلتْ أڤيڤا فتاةً في أوائل العشرينات تَلْبس ملابس بسيطة. شعرُها أشعث، ووجهُها شديد الاصفرار، وفي عينيها نظرةُ توجُّسٍ وحَذَر. كنّا ثلاثَ صبايا: أنا، وإيمان، وندى. إيمان سوداء اللون، شديدة البأس، موقفها كان صلبًا في التحقيق، أحببتُها ونشأتْ بيننا صداقةٌ بعد الشكوك التي انتابتني حولها أول الأمر بسبب اختلافها عنّي. ندى شقراء، في مقتبل العمر، غضّة التجربة. للوهلة الأولى هممتُ بالوقوف للترحيب بالقادمة الجديدة، لكنّني توقفتُ حين لاحظتُ نظرتَها المندهشة والمرتابة من السيجارة التي كانت في يدي، ولمحتُ اندفاعتَها الخفيفة إلى الخلف. اعتدلتْ في جلستها المتوثبة وأمسكتْ بفردة حذائها الأيمن تأهبًا للدفاع عن نفسها. تداركتُ الموقف؛ فهي خائفة منّا أكثرَ من خوفها من المحققين. تكلمتُ بنبرةٍ هادئة:

ـ أهلاً وسهلاً. الحمد لله على سلامتك. أنتِ عربية؟

ـ نعم أنا فلسطينية. والأخريات؟

ـ فلسطينيات أيضًا.

سألتْ وكأنّها تطالبني بإثبات ذلك:

ـ طيب، شو اسمك؟

ـ سهى.

سكتتْ. بعد لحظاتٍ سألتْ:

ـ طيِّب، سهى.. ايش؟

سهى كذا. كان اسمُ عائلتي معروفًا لديها. تسللتْ إلى عينيها نظرةٌ جديدةٌ وابتسامةٌ خفيفة. لم أنتظر سؤالها التالي بل بادرتُ بالاستفسار عن مكان دراستها. قالت بعد تردُّد:

ـ في مدرسة رام الله الثانوية.

سررتُ بهذه المعلومة:

ـ إذن تعرفين سهير؟

ـ نعم.. هل أنت قريبتها؟

ـ بالتأكيد.

وبأسلوب المحققين قالت:

ـ ماذا تدرِّس إذن؟

ـ تدرِّس مادةَ الفيزياء. زوجُها الدكتور عزمي طبيبُ أسنان، وعيادتُه في المركز التجاري.

وصفتُ لها بدقةٍ شكلَ سهير، وقلتُ إنّها معلِّمة محبوبة من قِبل الطالبات، على الرغم من تحفُّظهم على أسلوبها الجافّ في التعليم؛ وإنّها كانت معروفة بمواقفها الوطنية ومشاركتها الفاعلة في التظاهرات. وسردتُ العديد من التفاصيل لأنتزع آخرَ خيطٍ من خيوط شكوكها. ذُهلتُ من ردة فعلها، إذ تركتْ حذاءَها فجأةً، وهجمتْ عليّ تقبِّلني ودموعُ الفرح تغطي وجهها:

ـ أنت مش يهودية... أنت مش عميلة...أنتنّ مثلي معتقَلات سياسيات!

ـ نعم.. استريحي ولا تقلقي. سنقف معك، وسأحميك قدر المستطاع.

ضَمّتني إليها بقوة، كطفل يجد أمَّه بعد طول بحث. أَسندت رأسها على كتفي وتركت مساحةً قربي لتمدِّد جسدَها المنهك. بدأتُ بالحديث عن التحقيق، ولم أكد أنهي حتى اكتشفتُ أنّها غارقة في النوم. فمنعتُ نفسي من الحراك لأتيح لها هذه الفرصة التي لا أعرف كم تَطُول. وصحّ ما توقّعتُ، إذ ما لبث أن جاءنا صوتُ البلدوزر أڤيڤا:

ـ ليلى. حوكير (تحقيق)...

أردتُ أن أكسب الوقت حتى تلتقط ليلى أنفاسَها، فقلتُ:

ـ وطِّي صوتك. إحنا مش طرشان.

شددتُ بقبضتي على يد ليلى وقلتُ لها:

ـ اصمدي. إياكِ أن يخدعوك. الصمت والصمت فقط مفتاحُ الفرج. نحن معك وبانتظارك. تذكّري، أنتِ لست وحدك.

ـ شيكت (اخرسي)، قالت أڤيڤا.

ـ اخرسي أنت، ولا تحكيني بهذه اللهجة، وإلا كسرتُ أنفك!

قلتُ ذلك وأنا أعلم أنّني سـأدفـع ثمن هـجـومي عليـهـا. ولكنّهـا كانت الطريقة الوحيدة المتاحة لأكسر حاجز الخوف عند ليلى.

لم أتمكّن من النوم حـتى الفـجـر، ولم تكن ليلى قـد عـادت بعـد. اسـتـبـدّ بي القلق وانتظرتُ روزيت بفـارغ الصـبـر. سـمـحتُ لنفسي، ولأول مرة، بأن أطلب منها شيئًا. قلتُ لها:

ـ أرجوكِ.. حَضَرتْ فتاة بالأمس، وذهبتْ إلى التحقيق، ولم تعد حتى الآن. أنا قلقة عليها. أريد أن أعرف أين هي؟

أجابت بسرعة:

ـ هي في زنازين المخابرات. استلمتُ اسمَها الآن.

إذن يحـاولون عـصـرَها وإنهـاكَـهـا، كـمـا حـدث مـعي في بداية التـحـقيق. تخيَّلتُ السيناريو: الشـبْحُ سـاعـاتٍ طويلة، والرأسُ مغطّى بكيس من الخيش رائحتُه كريهة، والتهديدُ بالاغتصاب. يا إلهي! لطمتُ جبهتي بيدي، لماذا لم أنبِّهْها إلى هذا الموضوع؟ ليْتهم يستدعونني إلى التحقيق علّني أخفف عنها. كم تمنَّيتُ أن أُشْبَحَ في سـاحة غرف التحقيق بالقرب منها لكي أتمكّن من تمرير بعض الكلمات إليها.

ندى وإيمان غارقتان في نوم عميق بعد جولات التحقيق المرهقة. كان الجوع ينهشنا لأنّنا لم نتمكّن من تناول وجبة العشاء التي قُدِّمتْ إلينا الرابعةَ بعد الظهر استـعـدادًا ليـوم السـبت الذي يُحظَّر فيه إشعالُ النار أو الضوء من مساء الجمعة. كان مساءً طويلاً، وصراخنا طلبًا للطعام لم يلقَ أيّ تجاوب من أڤيڤا بحجة أنّ المطبخ مغلق.

وصلني صوتُ روزيت الهادئ:

ـ لماذا لا تسـتـريحـين وتأخـذين قـسطًا من النوم قـبل جـولة التحقيق؟ حاولي، وإذا لم تتمكني فسأعود لنتحدّث بعد استلام ورديتي من أڤيڤا.

انتظرتُ عودة روزيت بفـارغ الصـبـر. ثقـافـتُـهـا، واهـتـمـامـاتُنا المشتركة بالأدب والسينما العـالمية، فَتَحتْ لنا بوّاباتٍ واسعةً للنقاش. في بعض الليالي الهادئة كانت تمرِّر لي كتـابًا لبضع سـاعات، أقرأه ثم تستردّه قبل أن تُنهي دوامَها حتى لا يُضْبط معي في حال التفتيش الفجائي الذي كانت تقوم به أڤيڤا من وقت إلى آخر. انهمكتُ في إعادة قراءة قصة **أنا كارنينا** التي كنتُ قد قرأتُها في مرحلة الدراسة الثانوية.

بعد فترة وجيزة، عادت روزيت وبيدها ساندويتش كبيرٌ تفوح منه رائحةُ البيض المقليّ. لم أكن قـد شـممتُ هذه الرائحـة منذ وقت طويل؛ فنوع البيض المقدَّم في المسكوبية رديء جدًا، بياضُه كصفاره مصبوغان بزرقة، وتفوح منه رائحة نتنة. فرحتُ كثيرًا وهممتُ بإيقاظ الصبايا لنأكل معًا، لكنّ روزيت قالت:

ـ لا، أرجـوكِ. السـاندويتش لكِ فـقط. إذا عَلِمَ أحـد، سـيكون موقفي صعبًا.

وطَلَبتْ وعدًا بألاّ أوقظهنّ.

ـ إمّا أن نأكل جميعًا أو لن آكل وحدي، أجبتُها بنبره حادة.

كان ذلك موقفًا عاديًا بالنسبة إليّ، ولكنّه كان كبيرًا جدًا عند روزيت. لم تستوعبه في البداية، ولكنني، كما يبدو، كبرتُ في نظرها. راحت تتحدّث بانفتاح أكبر عن المغرب، وعن الآلام التي تعانيـهـا منذ عـادت وزوجَـهـا إلى «أرض الميـعـاد.» تحـدّثتْ عن الديون والقروض المتراكمة عليهما والتي تمنعهما من العودة إلى المغرب حتى لو أرادا ذلك. تحدّثْنا ساعات طويلة. تحدّثنا في كلّ شيء، إلاّ في السياسة والتهم الموجّهةِ إليّ والتحقيق. ثم طلبتْ منّي فـجـأةً أن أُخـفي السـاندوَيتش وأقـدِّمَـه للبنات بعـد انتـهـاء ورديتها. وبرقة فائقة قالت:

ـ تصبحين على خير. اطمئني، ليلى بخير.

في منتصف الليل تقريبًا، بدأتْ أصواتُ المفاتيحَ تَكْسر السكون، ووقعُ الأقدام يقترب. مَنْ منّا ستُستدعى للتحقيق؟ ولكن ثمة جلبة لأكثر من شخص. قفز قلبي من مكانه. ليتها ليلى. صوتُ أڤيڤا:

ـ أسرعي. اقتربنا.

إنّهـا ليلى. لم تكن تسـتطيع أن تجـرّ قـدمـيْهـا. صـرختُ بأعلى صوتي:

ـ تماسكي يا ليلى. ابذلي مجهودًا أكبر. نحن في انتظارك.

فتحتْ أڤيڤا الباب. حملتُ ليلى ووضـعتُها على السرير. كانت خـائرة القوى، عيناها غـائرتان، وأثرُ كدمـةٍ كبيـرةٍ على فكّهـا الأيمن. نظرتُ إليـهـا نظرة استـفـهـام، فَهمَتْـهـا وهزَّت رأسَـهـا بالنفي. شعرتُ بسعادة كبيرة. سامحيني على الابتسامة، فالألم سـيزول؛ أمـا نشـوةُ الانتـصـار فـتـعـشِّش في النفس إلى الأبد. وبحنوٍّ شديدٍ طبعتُ قبلةً على جبينها، فبدأتْ دموعُها تنساب.

حـاولتُ إطعامَـها قطعةً من سـاندويتش روزيت. رفضتْ من شدة التـعب وألم الفك. لكنّني أقنعـتُـهـا بأهمـيـة أن تأكل أيّ شـيء للمحـافظة على القوة. وبحذر شـديد، بدأتُ بسـرد توقعاتي عمّا سيحدث في الأيام القادمة:

ـ نعم، عزيزتي. هذه هي البداية فقط. ربما يستدعونك مرةً ثانيةً الليلةَ حتى لا يعطوك فرصـةَ استرداد قوتك. الأيام الأولى هي الأصعب. تحمَّليها لتخرجي إلى البيت. ألا تحبِّين خبزَ الطابون؟

ـ طبعًا، خصوصًا خبز أمي.

ـ حـاولي تذكُّرَها باستمرار. تذكري رائحةَ الطابون ووجهَ أمك. تذكّري شـجرَ اللوز والزيتون. تذكري شوارع رام الله. والأهم، تذكري وجوهَ الذين سـتسـجنينهم هنا إذا اعترفتِ بأيِّ شيء. ستجتازين المحنة. أنا متأكدة.

توقفتُ ولم أعرف كيف أُكمل حديثي. ترددتُ في كيفية تحذيرها من التهديد بالاغتصاب، وهو الذي كان سببًا في انهيار عدد من المعتقلات والمعتقلين. لم أجد سوى الطريقة البسيطة والمباشرة. بنبرة حازمة قلتُ لها:

ـ سيهدِّدونكِ بالاغتصاب!

وقبل أن أُكمل تحوّلتْ عيناها إلى كرتيْن، وتسمَّرتْ مكانَها، ثم خبطتْ يدَها على صدرها قائلةً باللهجة القروية:

ـ يا مسود!

ـ لا تخافي. لن يقوموا بذلك، حتى وإنْ بدأ أحدُهم بخلع ملابسه. كلّ ما في الأمر أنهم سيحاولون استكشاف نقاط ضعفك ليستخدموها. نصيحتي أن تُبدي عدم الاكتراث. وإنْ طَلَبوا منكِ خلعَ ملابسك ابدأي بفكّ أزرار قميصك!

صاحت بلهجة استنكارية قوية وكأنّها لم تكن منهارة من التعب قبل دقائق:

ـ أَفْتح أزرارَ قميصي؟ اِنْجَنّيتِ؟ الموت أهون عليّ. سأَكْسر رقبةَ مَنْ يقترب منّي.

ـ هذا راجع إليك، ولكنْ عليّ أن أَنقل لك ما أعرفه.

وبتردُّد سألتْ:

ـ هل أنتِ متأكّدة؟ ماذا لو استمروا في المحاولة؟

ـ سواءٌ بادرتِ أم لا، فالنتيجةُ واحدة إذا كانوا مصرّين على ذلك. ولكنْ، استنادًا إلى معلوماتي، فإنّهم لم يقوموا بذلك في السنوات الأخيرة، بخلاف الستينيات والسبعينيات. ربما حصل شيء من هذا القبيل، لكنّني متأكدة أنها محاولة لمعرفة نقاط الضعف فقط.

لم أعرف كم من الوقت نِمْنا، لنفيق على صوت أقيڤا:

ـ ليلى، حوكير.

يا إلهي! هم مصممون على استنزافها. شعرتُ أنّ ما تخبِّئه مهمٌّ جدًا ويؤثِّر في آخرين. تمنّيت فعلاً أن يأخذوني بدلاً منها. لم تَطُلْ هذه الجولة. عادت ليلى مصفرّةً وترتجف من التجربة. صفعتني على خدي بتحبُّب: «كذّابة. لم يتوقّفوا بعد الزرّ الأول ولا الثاني. فككتُ الزرّ الثالث وأنا أشعر برطوبةِ ملابسي الداخلية. خفتُ أن تكوني مخطئة. من الواضح أنّهم حاقدون عليكِ، إذ شتموني وشتموكِ بألفاظ بذيئة. المهم.. نجحتُ!»

حضنتُها وتركتُها تغفو. كانت يدُها اليمنى بين يديّ، ويدُها اليسرى تُمْسك بأزرار قميصها.

أصبحتُ وحدي في الغرفة بعد نقلهم ليلى إلى مكان آخر، والإفراج عن إيمان، ونَقْلِ ندى إلى سجن الرملة بانتظار محاكمتها بناءً على اعتراف آخرين ضدها. استمرّتَ الحواراتُ بيني وبين روزيت، التي بدأتْ بإحضار أشياء صغيرة إليَّ بين الحين والآخر: مرآة، فرشاة أسنان، كريم يساعد على إزالة البثور التي ظهرتْ على وجهي، حبّات مسكّنة لوجع الرأس، والأهمّ قلم وورقة وبعض الكتب وولاّعة سجائر كانت تأخذها بعد انتهاء ورديّتها. وسُمحَ للمحامية بتزويدي بالسجائر وبعض الحلويات التي كنت أصرّ على أكلها مع روزيت.

طلبتُ لي إذنًا بالذهاب إلى غرفة الأمانات لأُحضر ملابسَ نظيفةً من حقيبة سفري. انتقيتُ أحلى ملابسي، وتهيّأتُ لجولة التحقيق القادمة. انتزعتُ الشعرَ الزائدَ على حاجبيَّ بملقطٍ أحضرتْه لي روزيت! تزيّنتُ من أدوات المكياج التي كانت بحوزتي في الشنطة. علّقتْ أقيڤا عندما أخذتني:

ـ هل تظنِّين نفسَكِ ذاهبةً إلى حفلة؟

ـ نعم... وافتحي لي البابَ لو سمحتِ!

استشاطت غضبًا وقالت:

ـ معلش.. سنكسر مناخيرَكِ عاجلاً أم آجلاً.

كانت حاقدةً جدًا، خاصةً بعد المقلب الذي أعددتُه لها. فقد وصفتُ لها اسمَ حبوب لتخفيف الوزن، وأقنعتُها بأخذِ حبتين في الصباح والظهر والمساء. اسم الحبوب ponoment، وهي حبوبٌ تُمضغ كاللّبان على ما أَذْكر. من المؤكّد أنّها اتّبعت التعليمات بدقة، لأنّنا لم نرها ثلاثة أيام قَضَتْها في البيت بسبب المغص والإسهال الشديديْن!

في إحدى الجولات التي باتت تتسم ببعض الأسئلة الروتينية (مَنْ نَظَّمك؟ بمن تتصلين؟ لماذا كنتِ ذاهبةً إلى الأردن؟)، وبعد إجاباتي الصامتة، قال أحدهم:

ـ طيِّب، لا نريد معلومات أكثر من اسم المسؤول عنك في التنظيم، وسنُخْرجك فورًا. أَعِدُكِ بشرفي!

قلتُ باستخفاف:

ـ بشرفي أنا، لا أعرف أيّ شيء مما تقوله.

قلت في نفسي: أيُّها الغبي، هل أشي بمن أحببتُ؟ هل أُحْضرهم هنا وأنا أكنّ لهم كلّ المشاعر التي لم تذقْ طعمَها أبدًا، وإلاّ لما قَبِلْتَ لنفسك هذا الدور؟ كيف يَقْبل إنسانٌ سويّ أن يقضي أيامَه في تعذيب الآخرين؟

صحوتُ على خبطة قبضته على الطاولة وهو يقول: «ستقبعين هنا سنةً وراء الأخرى إلى أن تعترفي. وبانتظارك مفاجأة. ستشاركك الغرفة مجرمةٌ قَتَلَتْ أباها. ستجعل حياتَكِ جحيمًا في الغرفة. والقادم أعظم!»

في طريق العودة أزعجتني فكرةُ وجودِ جنائيةٍ معي في الغرفة، إذ ستُنْهي حواراتي مع روزيت التي أصبحتْ أهمَّ إنسان عندي في هذا المكان، وستوقف عن القراءة لأنّ روزيت لن تتمكّن من إحضار الكتب إليّ. وتساءلتُ مَنْ تكون هذه السجينة؟

ـ مساء الخير، قلتُ لها باقتضاب وانقباض.

ـ أنا سعدة.

ـ وأنا سهى.

سألتني إنْ كانوا يعذّبونني. قلتُ:

ـ حاليًا لا، فالتحقيق في نهاياته. وأنتِ؟ لماذا أنتِ هنا؟ ما تهمتك؟

ـ قتلتُ أبي.

ثم واصلتْ:

ـ بالأمس فعلتُ ما كان عليَّ فعلُه منذ سنوات. جلستُ أربع ساعات في بيت أهلي أمام باب المنزل في انتظاره. كنتُ أحمل بيدٍ ثابتةٍ مسدَّسَه لأنه كان يتعامل مع الاحتلال.

صوت البلدوزر أقيڤا يَقْطع الترقب: أوخل (طعام).

ـ لا نريد الأكل، صرختُ فيها.

ولكنّ سعدة قالت:

ـ لا، أرجوك أنا جائعة جدًا. لم يَدْخل شيء جوفي منذ الأمس.

تسمَّرتُ مكاني، وجَفَّت الكلماتُ في حلقي. قتلتْ أباها بالأمس وتَشْعر بالجوع الآن! ذهبتُ إلى غرفة الطعام على مضض. لم أتمكن من تناول العشاء. وبقي بصري يلاحق سعدة وهي تلتهم الطعام بشهية، بل لم تتردّد في أكل حصتي التي قدّمتُها لها. قالت بمرح:

ـ أَشْعر برغبة شديدة في الحياة، بعكس العشرين عامًا السابقة.

ـ أَكْمِلي طعامَكِ، أرجوك.

كنتُ متلهِّفةً للعودة إلى الغرفة لأسمع بقية القصة. سألتني أقيڤا:

ـ ما بالُكِ صامتةً الليلة؟

ـ اصمتي وافتحي لنا البابَ فقط. هذه مهمتك. نسيتِ؟

ضحكتْ سعدة وقالت بصوت مسموع:

ـ تعجبيني. إذا تحرَّشَتْ بكِ سأقتلُها كما قتلتُ أبي!

ذُهلتْ أقيڤا ولم تنبس بكلمة. فتحت الغرفةَ وأغلقتْها وراءنا من دون تعليق. أَسْعدني موقفُ سعدة وعلمتُ أنّه سيصل إلى المخابرات، وسرعان ما تُنقل إلى سجن الرملة. لذا استعجلْتُها قائلة:

ـ أكملي لي ما حدث، أرجوكِ.

أكملتْ من حيثُ توقّفتْ:

ـ انتظرتُ أبي أربعَ ساعات، مرَّ خلالها شريطُ العمر أمامي. كنتُ في السادسة من العمر عندما أخذني لمساعدته في الفرن الذي يملكه، وهناك...

تسارعتْ دقاتُ قلبي. صُدِمتُ. هل يعقل أن يقوم أبٌ باغتصابِ بناته الأربع؟

استمرت في السرد، وملامحُها أشبهُ بتمثالٍ شمعيّ.

ـ ما رحمني وخلّصني من استمرار اغتصابه لي هو وصولي إلى مرحلة البلوغ. كان يخشى من الحمل، فقام بتزويجي لابن شقيقه. لن يتمكّن أمهرُ الكتّاب من وصف الألم والخوف اللذيْن كنتُ أحسهما كلّما ذهبتُ إلى الفرن تحت سمعِ وبصرِ والدتي التي كانت تصمّ أذنيها خوفًا من الفضيحة.

وَصَفتْ سعدة اصطكاكَ أسنانها، وبرودةَ وجهها، واهتزازَ جسدها الصغير. وَصَفَتْ نظراتها المستغيثة به كي يتوقّف. وَصَفَتْ أظافرَ أصابعها الطفولية مغروسةً في أرضية الفرن. وَصَفَتْ حرقةَ حَلْقها. وَصَفتْ عينيْ والدتها نصف المغلقتيْن عندما كانت تستغيث بها.

ـ الحمد لله أنّ والدتي توفّيتْ من المرض، وإلا لفكَّرتُ في قتلها هي الأخرى. بعد زواجي أنجبتُ طفلةً أسميتُها ياسمين، والثانية أسميتها شادية. شادية عمرُها ثلاثة أشهر، سيُحْضرونها للبقاء معي في السجن لأعتني بها إلى أن تبلغ الخامسة. كنتُ أكره نفسي عندما أُنجب بنتًا خوفًا عليها من مصير مثل مصيري. وقبل يومين حضرتْ ياسمين لاهثةً وتبكي بحرقة، ولسانها عاجز عن النطق. أشارت إلى ملابسها الداخلية، فشاهدتُ بقع الدم...

ـ أكملي. أرجوك.

ـ احتضنتُ ابنتي ونظّفْتُها وأبقيتُها في حضني طول الليل دون أن يغْمض لي جفن. توجَّهت إلى منزل والدي بعد أن خَرَجَ إلى الفرن. بحثتُ عن المسدس. جلستُ بانتظاره، وعيناي مسمَّرتان على الباب. دخل. شاهدتُ علامة الدهشة على وجهه عندما رأى المسدس في يدي.. ثم ستّ طلقات. ستّ طلقات حوّلتْني من ضحية إلى إنسانة. ستّ طلقات جدّدتْ رغبتي في الحياة. ستّ طلقات انتقمتُ بها لنفسي ولأخواتي ولابنتي ولجميع مَنْ تسبَّب في إيذائهم. ستّ طلقات فتحتْ لي بابَ الحرية.

توقفتْ وسألتني فجأة:

ـ هل للنضال شكل واحد؟

وضعتُ يدَها بين يدي. قبّلْتُها في جبينها، وقلت:

ـ وهل للحرية شكل واحد؟

كانت تلك أقصرَ ليلةٍ تمرّ عليّ بين جدران المسكوبية. تبعتْها ليالٍ من التفكير في كلّ كلمة سمعتُها من سعدة. فكّرتُ في النضال، في الناس جميعًا، في الاحتلال، وأسرعتُ إلى استحضار صور ومواقفِ رفيقِ دربي وحبيبِ قلبي، علّني أخرج من هذه الدوامة.

شعرتْ روزيت بعدم رغبتي في الحديث. سألتني بإلحاح عن التحقيق لاعتقادها أنّ شيئًا جديدًا حصل معي. بكيتُ، وحدّثتُها عن سعدة. ساعات طويلة امتدت ونحن نحلِّل موقف أم سعدة، وتركتني مع كتابٍ لنوال السعداوي أحضرتْه لي المحاميةُ مع كتب أخرى.

أصواتُ المفاتيح ووقعُ أقدام تقترب. إنّه التحقيق السخيف. أزعجني جدًا التوقفُ عن القراءة. أخفيتُ القصةَ تحت الوسادة وانتظرت كلمة «حوكير.» ولكنّه وقعُ أقدامٍ لأكثر من شخص. توقّف الصوتُ أمام الغرفة المجاورة المخصصة للمعتقلات المدنيات اليهوديات والعربيات.

ـ أدخلي.

وجاء الرد:

ـ لماذا أنا هنا؟ لستُ أنا المذنبة. أنّه هو مَنِ اعتدى عليّ.

ـ شيكت (بنت زنا)!

عرّفتني سميرة باسمها، وسألتني عن اسمي. لا أدري لماذا كذبتُ وقلت لها: «مريم.» ربما بسبب الشعور بالاشمئزاز وعدم الرغبة في الاحتكاك بهذا العالم السفلي الذي كنتُ أتعرّف عليه لأول مرة في حياتي. سألتني:

ـ ولماذا أنتِ هنا، مخدِّرات أَمْ سرقة؟

بنبرة حادةٍ قلت:

ـ لا، أنا معتقلة أمنية.

انخفض صوتُها وتغيَّرتْ نبرتُها. وبعد صمت قالت:

ـ الله معك. أنا مستعدة لتقديم أيّ شيء.

وماذا سأحتاج من مومس؟ قلتُ لنفسي. وشعرتُ بالغثيان، فقطعتُ الحوارَ بحجة الإرهاق وحاجتي إلى النوم.

بعد صمت ثقيل، بدأتْ سميرة الغناءَ بصوتٍ في منتهى العذوبة. غنّت لأم كلثوم أولاً، ثم ترانيم للأطفال. أغانٍ لم أسمع أرقَّ من كلماتها، ولا أعذبَ من ألحانها بمثل ذلك الأداء الجميل. واستمرّت تغنّي إلى أن غفوتُ، وأنا أحلم بالحدائق... وبطفلٍ لن أتمكّن من إنجابه في هذه التجربة السرية.

أدهشني وجهُ سميرة، حدّقتُ فيها أثناء توجُّهنا إلى غرفة الطعام لتناول الإفطار. كان وجهًا صبوحًا ولا يُشْبه الصورةَ التي أرسمها لأمثالها. نظرتْ إليّ مليًا وقالت:

ـ صباح الورد.

أجبتُ باقتضاب:

ـ شكرًا.

لاحظتْ سميرة أنني لم آكل شيئًا؛ شربتُ كوب الشاي البارد فقط. دسّتْ يدَها في جيبها تاركةً لوحًا صغيرًا من الشوكولاتة. عند عودتي إلى الغرفة، ترددتُ في تناول الشوكولاتة، وتركتُها قرب السرير.

بعد عودتنا من التحقيق، سألْتُها:

ـ أصحيح ما يقال عن التهمة الموجَّهة إليك؟ لا أصدِّق.

– نعم أنا مومس منذ سنوات طويلة. وفتحتُ رأسَ أحدهم بعد أن حاول إهانتي واستغلالي.

ما شاء الله، قلتُ لنفسي، مومس وعندها كرامة! سألَتْني إنْ أعجبتني الشوكولاتة لترسل لي غيرَها. فقلتُ لها إنّني لم آكلها بعد. قالت:

ـ آه لأنّها بفلوس حرام؟ حتى أنتِ؟ اعتقدتُ أنّك مختلفة عن الآخرين.

كدت أصرخ بها: «أنا لستُ مختلفة وما زلت أشعر بالاشمئزاز،» ولكنّني صمتُ وقطعتُ الحوارَ ثانيةً.

بعد موجة بكاء حادة، عادت سميرة إلى غناءٍ رقيقٍ. انسكبتْ دموعي بصمت، وتذكّرتُ حنّا مينا في روايته **الشمس في يوم غائم** وكيف حَلَّلَ العلاقات الاجتماعية والأخلاق المزيفة، وكيف كانت بائعةُ الهوى ضحيةَ الاستغلال. سألْتُها:

ـ لمن تغنين؟

قالت أغنّي لنور عيني، لروحي، لحبيب قلبي، لابني الذي لم أره منذ ثلاث سنوات ولن أراه إلى الأبد، لأنّه فارق الحياة.

ـ بعيد الشر..

ـ إنّه يعيش مع عائلة ألمانية في برلين. هرّبتُه من خلال إحدى الراهبات. إنّه نظيف الآن. سيعيش حياةً نظيفةً، وسيكوّن مستقبلاً نظيفًا.

ولم تنتظر المزيد من الأسئلة فأكملتْ:

ـ تزوّجتُ وأنا في الخامسة عشرة. كان زواجًا مدبَّرًا من أهلي، لا قرار لي فيه. بعد السنة الأولى أنجبتُ طفلي. زوجي سكِّير ومقامر ومفلس. لم يجد ما يبيعه سواي، إذ قام بإحضار رجالٍ إلى البيت، وكان يَطْلب منّي معاشرتَهم لحاجتنا إلى المال لأنّه كان عاطلاً عن العمل. كان يضربني ضربًا مبرحًا كلّما رفضتُ القيام بذلك. رَضَخْتُ في النهاية. سايرتُه في هذه اللعبة الوسخة، إلى أن أتقنتُها وامتهنتُها لصالحي فيما بعد. ولما بلغ ابني الرابعة، تعرّفتُ على راهبة أثناء ارتيادي لدُور العبادة المسيحية والإسلامية علّني أخلِّص روحي. اقتنعت الراهبةُ بمساعدتي لتخليص ابني من مستقبل مظلم، وساعدتني بإرساله إلى ألمانيا. ادّعيتُ أنّه خُطف منّي، ولم أعترفْ لزوجي بمكانه حتى اللحظة. أُرسل إلى العائلة مبلغًا سنويًا عن طريق الراهبة. يا إلهي كم أنا مشتاقة إلى أن أحضنه ولو لدقائق.

بدأتُ أحدِّثها عن الأمل وقدرةِ الإنسان على تغيير واقعه، وسألتها عن إمكانية العودة إلى الدراسة كخطوة أولى للخروج من المستنقع. ضحكتْ بخبث وقالت:

ـ وهل تعليقُ شهادةٍ على حائط البيت يمحو وصمةَ المومس؟ لو كنتُ رجلاً لأمكن ذلك. أنت تشمئزّين منّي، ولكنْ هل ينتابك الشعورُ نفسُه حيال المهندس فلان والمقاول علاّن ورجلِ الأعمال كذا؟ أتمنى لو تشاهدينهم داخل الأبواب المغلقة حيث نكون نحن

سيّدات الموقف! ولكنْ خارج الباب الذي لا يتعدى ٢٠ سنتمترًا، يعودون إلى عالم المحترمين، ونحن نصبح لا شيء. صحّ؟

ـ ولكنْ لماذا لا تنتقلين إلى مدينةٍ لا تعرفك وتبدإين حياةً جديدةً؟

ـ إنْ هربتُ من الناس فكيف أهرب من نفسي؟ خياراتي معدومة يا عزيزتي.

فكّرتُ في الخيارات التي يمكن أن أقترحها عليها، فلم يسعفني عقلي ولا الأفكارُ التي تتصارع في رأسي. وبصوتٍ عالٍ وواثقٍ قلت لها:

ـ طعم الشوكولاتة لذيذ. هل لديك قطعة أخرى؟

ضحكتْ بفرح واضح وسألت:

ـ هل تنظِّمينني معكم؟!

فُتح البابُ وحضرتْ روزيت لتأخذني إلى التحقيق. بعد عودتي لم أجد سميرة، بل كمية كبيرة من ألواح الشكولاتة تركتْها لي بالتعاون مع روزيت. ذهبتْ سميرة إلى سجن الرملة، قسم الجنائيات، قبل أن تسمع جوابي.

من رتابة الأسئلة وتكرار الحوارات، بدا لي أنّ هذه هي آخرُ جولات التحقيق. حاول أحدُ المحققين التذاكي، فطلب منّي أن أكتب أيّ شيء. وأشار إلى أنّهم لن يخرجوني إلاّ إذا كتبتُ شيئًا، أيّ شيء. شعرتُ أنّها النهاية، خاصةً وأنّ القاضي رَفَضَ تمديد الاعتقال للمرة الرابعة إلاّ بعد الحصول على معلومات جديدة.

في تلك الليلة الأخيرة، حلمتُ أنّ والدي المتوفّى حضر إلى السجن وأخذني وسار معي في شوارع رام الله وهي مغطّاةٌ بالثلوج.

أفقتُ من الحلم على صوت روزيت:

ـ صباح الخير.

فتحت البابَ. وقفتْ أمامي وابتسامةٌ عريضةٌ على وجهها. سألتُها: «حوكير؟» ضمتني بقوة وقالت: «احترمك جدًا. وسأكره اليوم الذي أراكِ فيه مرةً ثانيةً هنا. مع السلامة.»

❖ ❖ ❖

لم أشاهد روزيت منذ ذلك التاريخ.

ليلى تزوجتْ بمن كتمتْ سرَّه في التحقيق، وتربطنا اليومَ صداقةٌ عميقة.

إيمان تعيش في نابلس، وهي التي حسمتْ موقفي من السوداوات والسود. زوجُها استُشهد في البلدة القديمة.

ندى أنهت تعليمَها الجامعي بعد خروجها من السجن.

حُكِم على سعدة بالسجن اثنيْ عشر عامًا. تتبّعتُ أخبارها، وهي مستعدة الآن لعمل فيلم وثائقي عن تجربتها.

وأنا تزوجتُ بمَنْ كَتَمتُ سرَّه، وتجربتُنا أثمرتْ ابنةً رائعة.

أعيش على انتصاراتي الصغيرة.. على أملِ أن أعيش الانتصارَ الكبير.

رام اللّه